توظيفُ النص القرآني في أخبار الأذكياءلابن الجوزي(597هـ)
(مقاربة حجاجية)

Employing the Qur’anic Text in the Book Akhbar Al-Az-kaya “News of smart” Ibn al-Jawzi (597 AH) (Argumen-tative Approach)

ا.م.د. لؤي كريم عطية
جامعة المثنى كلية التربية الاساسية

Assistant Professor Dr. Louay Karim Attia
Al-Muthanna University
Faculty of Basic Education

ملخص البحث

تقدمُّ هذه الدراسة مقاربة تداولية في حجاجية النص القرآني في كتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي(٥٩٧هـ)، في محاولة للكشف عن توظيف المرجعية الدينية القرآنية بوصفها سلطة مقدّسة يعود إليها الأدباء في تدعيم خطاباتهم وتوجيه أفكارهم، فالاحتجاج بالقرآن الكريم هو احتجاج بالأصل الديني واللغوي والتداولي، فضلا عن الإعجاز البياني.

كما تحاول الدراسة رصد خروج توظيف السرد الخبري للنص القرآني عن غايته الاقناعية إلى غايات أخرى، كالاستدلال به على قضايا وأحداث اجتماعية تخرجه عن الحجاجية إلى التندّر والفكاهة والسخرية من الآخر، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالمغالطة الفكاهية.

Abstract

This study presents a pragmatic approach in the argumentation of the Qur'anic text in Ibn al-Jawzi's book "Akhbar Al-Azkaya" by Ibn al-Jawzi (597 AH)، in an attempt to reveal the employment of the Qur'anic religious authority as a sacred authority to which writers return to support their sermons and direct their ideas. Argumentation using the Holy Qur'an is argumentation in a religious، linguistic and pragmatic origin، as well as the rhetorical miracle.

The study also attempts to monitor the deviation of employing the narrative news of the Qur'anic text from its persuasive goal to other ends، such as inferring social issues and events that takes it away from argumentation to sarcasm، humor، and ridicule of the other، or what can be termed as humorous fallacy.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين،

وبعد:

يندرج الحجاج بالسلطة ضمن الطرائق الاتصالية في النظرية التداولية مثلما وقرت عند بيرلمان وتيتكا وغيرهما، إذ تستدعي الخطابات سلطة دينية أو سياسية أو أخلاقية تدعم توجهاته وتوجه أفكاره بغية إقناع الآخرين بمضمونه، بما تمتلكه هذه السلطة من مقومات القوة والقداسة مع المرجعيات الدينية خاصة، فالنص القرآني يكتسب سلطته من قداسته وعلوه وحاكميته في الخطابات الأدبية لأنه في الأصل خطاب الله عز وجل٠ وليس التراث السردي القديم بمنأى عن استثمار المرجعيات الدينية وبالأخصّ القرآن الكريم

وكتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي(٥٩٧هـ) أحد تلك النتاجات السردية التي عمدت الأخبار فيها إلى توظيف النص القرآني في حواراتها بوصفه نصاً تداولياً يوجه الخطاب وصاحبه إلى تحقيق منفعة أو إقناع للطرف الآخر٠

وقد تناولت الدراسة محاور ثلاثة للكشف عن فعالية النص القرآني وتوظيفه في كتاب أخبار الأذكياء، أولها: سلطة النص القرآني الحجاجية في توجيه الخبر الذي تتشكّل بنيته السردية على الآيديولوجية الدينية، ويقود النص المقدس المتحاورين فيها الى توظيفه في إفحام الخصوم، وثانيهما: توظيف النص القرآني الديني لـ اللاديني أو الاجتماعي، بما يشمله هذا التوظيف من مفارقة حجاجية على الرغم من المحمولات الدلالية الدينية التي يتشكّل منها الخبر، وثالثها: الأخبار التي خرجت عن سلطة المقدس والتي تقع فيما يمكن تسميته المغالطة الفكاهية، إذ وظّفت النص القرآني لأجل الفكاهة والتندّر والسخرية من الآخرين، كما تضمّنت الدراسة خاتمة لأهم النتائج التي توصلت اليها، وقائمة المصادر والمراجع٠

وقد بذلت في هذه الدراسة جهدي فإن وفقت فمن الله، وان قصرت فمن نفسي، ومن الله التوفيق ٠

١ـ سلطة النص المقدس الحجاجية:

لا جرم في أن القرآن الكريم حاكم في مرجعية الديني أو المقدس، إذ إن الاحتجاج بالنص القرآني، هو احتجاج بالأصل، والاحتجاج بالأصل يعني نسبة النص القرآني الى مجاله التداولي واللغوي الذي يختصّ بإمرة طائلة على عقول المتلقين ومشاعرهم وأهوائهم،[١] كما و إنه يمتلك هذه السلطة قبل دخوله في الخطاب بوصف قداسته وإعجازه، وبعد دخوله الخطاب حينما يشتغل موجِّها حجاجياً له[٢]،فهو سلطة دينية لا يختلف عليها باث أو متلق، والسلطة هنا تلعب دوراً رئيساً في إنتاج الخطاب وتأويله، وتمنحه القوة التي تحقق آثاره في المتلقي، فالقرآن في الأصل خطاب تداولي يتمتع بسلطة الاقناع التي اكتسبها من قداسته والاعجاز البياني واللغوي الذي ينماز به٠

ويشترط في حجاجية السلطة بوصفها موجهاً اقناعياً ناجعاً، موافقتها المخاطب وأن تشكّل جزءاً من ثقافته كي لا يضطر الخطاب إلى تسويغ مقومات السلطة التي يحيل عليها، فقد اقترح جون وودز ودوجلاس عدة شروط يتعيّ ن الالتزام بها في استخدام السلطة، منها:[٣]

١- ينبغي أن يكون الاستشهاد بسلطة ما على نحو صحيح، فإجراءات الحذف والزيادة أو أي تبديل لا يُنبه عليه يعد أمراً معيباً ٠

٢- ينبغي للسلطة أن تمتلك كفاءة مميزة في مجال محّدد، فالحظوة التي يتمتع بها لا تنفع في جميع الأحوال ٠

وتتناغم أخبار الأذكياء التي نقلها ابن الجوزي ٥٩٧هـ مع فعالية حجة السلطة وشروطها، فاغلب النصوص القرآنية فيها جاءت مكتملة ومن غير تعديل أو تحوير،

وهي بطبيعة الحال تمتلك الكفاءة لإقناع المتلقي ٠

ويقوم كتاب أخبار الأذكياء على مقدمة تقوم عليها أقسام الكتاب في نقل أخبار الذكاء والأذكياء، يقول ابن الجوزي٥٩٧هـ :((أحببت أن أجمع كتاباً في أخبار الأذكياء الذين قويت فطنتهم، وتوّقد ذكاؤهم، لقوة جوهرية عقولهم، وفي ذلك ثلاثة أغراض:

أحدها: معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم ٠

والثاني: تلقيح ألباب السامعين، إذا كان فيهم نوعُ استعداد لنيل تلك المرتبة، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللُبّ، فسماع أخباره تقوم مقام إخباره ٠

والثالث: تأدّب المُعْجب برأيه إذا سمع أخبار من يَعْسرُ عليه لحاقه))[٤]، ووظيفة هذه المقدمة،

وظيفة تواصلية تداولية في آن، تّتم بين باثّ الخبر/ابن الجوزي، والمتقبل/القارئ، و تضمن نجاعة الخطاب وقوته ليكتسب فيما بعد وثاقة الرأي واقناع المتلقين فيما ينقل من أخبار الذكاء والأذكياء في أزمان متباعدة ٠

إن ظاهرة استدعاء النص القرآني عند ابن الجوزي جاءت في الأخبار ذات البنية السردية البسيطة، وليس لهذه البساطة علاقة بطول الأخبار أو قصرها، وإنما تلتمس البساطة في الحركة السردية التي يمكن أن تختزل عادة في ثنائية رئيسية واحدة،[٥] ولا يختص بهذه الميزة أخبار ابن الجوزي حسب، بل تكاد سمة غالبة على كتب الأخبار في القرنين الرابع والخامس للهجرة٠

وبساطة التركيب وبنية السرد الخبري القائمة على الفعل ورد الفعل أو الطلب والاستجابة، لم تمنع من استدعاء النص القرآني وفرض حجاجيته القائمة على سلطة المقدس، إذ نقل ابن الجوزي

: ((أخبرنا أبو منصور، عن زكريا، قال: حضرت مجلساً فيه عبيد الله بن محمد، ابن عائشة التيمي، وفيه جعفر ابن القاسم الهاشمي، فقال لابن عائشة: هاهنا نزلت آية في بني هاشم خصوصاً، قال: وما هي؟ قال قوله تعالى: «**وإنه لذكر لك ولقومك**» (الزخرف:٤٤) فقال ابن عائشة: قومه قريش وهي لنا معكم ٠ قال: بل هي لنا خصوصاً، قال: فخذ معها «**وكذب به قومك وهو الحق**»(الأنعام:٦٦) قال: فسكت جعفر ولم يردّ جواباً))،[٦] يتعاور الخبر حجتان بالنص القرآني، إحداهما: ما طرحه جعفر بن القاسم الهاشمي، بالاحتجاج بآية من سورة الزخرف وإنها نزلت في بني هاشم، والأخرى: رد ابن عائشة التيمي، بالاحتجاج بآية من سورة الأنعام، لينتهي الخبر إلى النتيجة(فسكت جعفر ولم يردّ جواباً)، ويبدو أن إفحام جعفر الهاشمي من قبل ابن عائشة التيمي مرده إلى حجة استدعاء النص القرآني الذي يدلّ من وجهة أخرى على شمولية النص القرآني، وتجاوزه حدود الزمان والمكان وصلاحيته المطلقة، كونه يؤطر التجربة الإنسانية عامة ويكيفها بكونه موجّها للخلق أجمعين،[٧] وإن كان ثمة وظيفة يؤديها السرد في النص فهي تندرج ضمن الوظيفة الحجاجية الإقناعية، فالآيات الكريمات هي التي تدور حولها وحدات الخبر، في حوار هو أشبه بحوار الأنداد أو الخصوم٠

إن سلطة النص الديني أو الأيديولوجية الدينية توجّه الخبر أو هي جزء من بنيته الحوارية في

كثير من الأخبار التي نقلها ابن الجوزي، ومن ثم((ثم فإن صنع الخبر وتلقيه يقومان على هذه

الخلفية الأيديولوجية التي تحدّد القول وتوجّهه بحيث تجعله دائراً في فلكها))،[٨] وإن بنية الخبر

والمغزى منه في خدمة الأيديولوجية الدينية، فهي التي توجّهه وترسم خطاه السردية ٠

وتحتاج هذه الأيديولوجية إلى المحاورة التي تستند الى المجال التداولي الحجاجي الذي يجوز معه أن تسلك من سبل الاستدلال ماهو أوسع وأغنى من بنيات

البرهان الضيقة مثل الاعتماد على الشواهد النصية، أو كما أطلق عليها د.طه عبد الرحمن المحاورة البعيدة أو(التناص) سعياً وراء الإقناع والاقتناع بالطريقة الظاهرة التي يعرض فيها المحاور شواهد تدعم ما يريد،[٩] ومن أمثلة ذلك ما نقله ابن الجوزي عن حوار بعض اليهود مع المسلمين في قضايا تخصّ الدين والمعتقدات لكل منهما، قال: ((قال رجل من اليهود لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما دفنتم نبيكم حتى قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقال له علي: أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: «**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**»(الاعراف:١٣٨))،[١٠] ونلحظ أن الأيديولوجية الدينية شكّلت بنية الخبر في حوار اليهودي الذي يحتجّ على المسلمين بحادثة اختلاف المسلمين بعد وفاة النبي(ص) حول شؤون الخلافة من بعده، فاستثمر الإمام علي(ع) النص القرآني من سورة الأعراف ليحتجّ على اليهودي ويحقّق اقناعاً للمتلقي بنتيجة أقلّ ما يفهم منها أن المسلمين لم يختلفوا بعد وفاة النبي(ص) في أصل التوحيد ولا النبوة، وإنما في أشياء مثل الخلافة والميراث وهي تخضع لممكنات الحلّ والرضا بينهم، و أن الآية تفحم اليهودي حجة وبرهاناً في أنكم لم تؤمنوا بحجج وبراهين نبي الله موسى(عليه السلام) بعد أن قطع بكم البحر وسواها من المعجزات حتى رأيتم قوما يعبدون الأصنام فقلتم(اجعل لنا إلهاً)، فكان استدعاء النص القرآني موجّها حجاجياً في ردّ خطاب اليهودي بما يمتلكه من سلطة المقدس والمعجز الذي لا يمكن التشكيك به.

ومنه أيضا خبر اليهودي الذي((ناظر مسلماً في مجلس المرتضى، فقال اليهودي: إيش أقول في قوم سمّاهم الله مدبرين؟ يعني النبي(ص) وأصحابه في يوم حنين، فقال المسلم: فإذا كان موسى أدبر منهم؟ قال له: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال:»ولّى مدبراً ولم يعقب»(النحل:١٠))،[١١] وهاهنا أيضا الأيديولوجية الدينية هي التي تحرّك الخبر وتنسج خيوطه، فاليهودي يأخذ على النبي(ص) وأصحابه أنهم تولّوا على أدبارهم في معركة حنين، فاستدعى المسلم النص القرآني من سورة النحل بحادثة تتشابه معها جرت على نبي الله موسى(عليه السلام) في أنه(ولّى مدبرا ولم يعقب) أي فاراً ولم يرجع، حين أمره الله سبحانه وتعالى أن يلقي عصاه، فلما ألقاها فاذا بها حية تهتز، ففزع موسى(عليه السلام) وهرب خوفاً منها، وصحيح أن هذا الحوار يندرج في مناظرة الأنداد، إلاّ أنه يعني من جهة أخرى، أن((حضور الكفاية الأيديولوجية في السلوك الحواري يظهر في التبادل الحجّاجي حين يمارس كل طرف قدراته التفسيرية للقضايا بإبراز المناحي التي تعطي قوة الموقف وذلك الإشراك في الرأي وتحقيق الاقناع))،[١٢] وهذا السرد التواصلي الحواري يستعين بتقنيات ليضمن نجاحه وتحقيق فاعليته بالركون الى النص القرآني بوصفه غاية استدلالية ووسيلة حجاجية تحقّق أقصى درجات التأثير.

ويقرر هابيرماس، أن هدف أي سلوك حواري هو توجيه معتقدات الآخر، سواء بإشراكه في الرأي أو إجباره على تعديل معتقداته، وإذا كانت المعتقدات هي المعقل المستهدف من أي سلوك، فإن الإقناع بالحجاج يكون هو الوسيلة الأمثل لمواجهة ذلك المعقل،[١٣] وتكاد تنطبق هذه الرؤية فيما نقله ابن الجوزي عن بعض الأذكياء، فقد((شكا جماعة من الصالحين ضرر الأتراك الى أمير المؤمنين، فقال لهم: أنتم تعتقدون أن هذا بقضاء الله، فكيف أدفع قضاء الله؟ فقال له أحدهم: صاحب القضاء قال: «**ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**» (البقرة:٢٥١) فأفحم أمير

المؤمنين))،[١٤] فالأمير يعتقد أن ما يصدر من بعض الأتراك بحكم قضاء الله وتقديره، حتى أفحمه صاحب القضاء باستدعاء النص القرآني وما يتضمّنه من معان ودلالات تؤكد فاعليته وسلطته وتداوليته وحجاجيته على كل زمان ومكان، فالآية قد نزلت في جنود جالوت في مقابل قتال النبي داود(عليه السلام) ومحاربته وقتاله له، فتوظيف قصة الآية المباركة من قبل أحد الأذكياء حجّة على الأمير في دفع ضرر الأتراك عن أصحابه ورعيته، كما في مناسبة الآية الحقيقية، إذ دفع الله الضرر عن المؤمنين(داود وجنوده) لمقابلة(جالوت وجنوده)، والنتيجة (إفحام الامير)،

فمثّل استدعاء النص القرآني والحادثة المنضوية في مناسبته سلطة في الإقناع تستمد قوتها من المرجعية الدينية في بنية الخبر، فضلاً عن محاكاة القدوة ٠

ومن الأخبار الطريفة التي يوجّه الخبر فيها المرجعية الدينية ما أورده ابن الجوزي نقلاً عن الشيخ أبي الوفاء، أنه قال((كان بعض قضاة الحنفية من مذهبه أنه إذا ارتاب بالشهود فرّقهم، فشهد عنده رجل وامرأتان فيما يشهد فيه النساء، فأراد أن يفرّق بين المرأتين على عادته، فقالت إحداهما: أخطأت، لأن الله تعالى قال: «**فتذكّر إحداهما الأخرى**»(البقرة:٢٨٢) فإذا فرّقت زال المعنى الذي قصده الشرع، فأمسك))،[١٥] إن امتناع القاضي عن التفريق بين المرأتين كعادته لم يحصل إلاّ لأنّه وقع تحت امرأة ذكية احتجّت على نيّته التفريق بينها وبين الشاهدة الأخرى بالنصّ القرآني من سورة البقرة، وهو احتجاج يقع في صلب التشريعات الإسلامية، ممّا حقّق فعاليته على درجة عالية من الوثاقة والقوة٠

٢- توظيف الديني لـــ اللاديني _ المفارقة الحجاجية

تتراجع هيمنة المرجعية الدينية في هذا النوع من أخبار الأذكياء، ويضحى الاحتجاج بالنص القرآني براغماتياً- اجتماعياً لا يمتّ بصلة وثيقة إلى مناسبة الآية ودلالتها الأصلية، ويقوم على تقنية المفارقة الدلالية، إذ يتخلّى الخبر عن الوظيفة أو الأيديولوجية الدينية لصالح الوظيفية التعبيرية التفاعلية بغية التأثير في المحاور الآخر، ويعالج قضايا ومواقف اجتماعية ضمن السرد الواقعي الذي يلقي بظلاله على طبقات مختلفة من المجتمع٠

وينتقل الحوار بين الشخصيات في هذا النوع من الأخبار إلى ما أطلق عليه د.طه عبد الرحمن(الحوار التفاوضي)،[١٦]الذي يبنى على حسن التعامل ويرمي إلى الظفر بمنفعة أو فائدة شخصية، وهنا يندمج التحاجّ والتفاوض لتحقيق تلك المنفعة، ومن ذلك ما نقله ابن الجوزي عن الجاحظ: ((أنبأنا هبه الله بن الحصين، قال: سمعت الجاحظ: رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد يُنادى عليها، وعلى خدها خال، فدنوت منها وجعلت أقلبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة٠ فقلت: الله أكبر! قَرُب الحجُّ، أتأذنين أقبل الحجر الأسود؟ قالت له: إليك عني، أو لم تسمع قول الله تعالى» **لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس**»(النحل:٧))،[١٧] بني الحوار في الخبر على الحقل الدلالي الديني، لكنه يحمل مفارقة كبرى في أن المحمولات الدينية فيه لا تخدم أيديولوجية المقدس، بل لتحقّق الوظيفة التفاوضية والحجاجية ليتحصّل بموجبه منافع اجتماعية وشخصية، فذكاء الجارية في استدعاء النصّ القرآني لا يمتّ بصلة إلى دلالته الأصلية أو مناسبة نزوله ولا يخدم قضية دينية في الخبر، واستثماره في هذا السياق كان تفاوضياً حجاجياً اعتمدت فيه الجارية على معنى النص الظاهري، وارتسمت عبره طريقاً أفسد على الجاحظ

ما يريد، ليكون مدار الأمر في الحوار قائما على ضوابط تداولية وتبليغية وتوجيهية، تقوم على البيان والتبيان

والفهم والإفهام والإقناع والاقتناع،[١٨] والجاحظ لم يسلك في حواره سلوك من يسأل سؤالاً مباشراً، بل تعّداه إلى ما هو مضمر بقوله(أتأذنين أقبّل الحجر الأسود) في تورية لطيفة، إلاّ أن ذكاء الجارية وفطنتها تلقف مراده فاستدعت النص القرآني حجة لإفحامه.

ومن طبيعة الحوار السردي القائم على المفاوضة لا كلام فيه إلاّ بين اثنين، لكل منهما مقامان، هما مقام المتكلم ومقام المستمع، ووظيفتان هما العرض والاعتراض، والأغلب أن يكون المتكلم عارضاً والمستمع معترضاً،[١٩] ففي خبر هشام بن عبد الملك: ((أنه أحضر إبراهيم بن أبي عبلة، فقال له: قد وليتّك الخراج بمصر، فأبى إبراهيم، فغضب هشام، فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين! يقول الله عز وجل»**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال..**«(الاحزاب:٧٢)

فوالله ما أكرههن ولا سخطت عليهن، ولقد ذمّ الانسان لما قبلها، فأعفاه ورضي عنه))،[٢٠] ويتعارض في هذا النسق الحواري وعيان، وعي الخليفة، ووعي إبراهيم بن أبي عبلة، فكان الأول في مقام العارض، والثاني في مقام المعترض الذي يحتجّ برفض ولاية مصر باستدعاء النص القرآني الذي يحقّق نتيجة (فأعفاه ورضي عنه) .

ونقل ابن الجوزي خبر بُنانُ، قال: ((وجاء بُنان إلى وليمة، فأغلق الباب دونه، فاكترى سُلماً فوضعه على حائط الرجل، فأشرف على عيال الرجل وبناته، فقال له الرجل: يا هذا! أما تخاف الله؟ رأيت أهلي وبناتي؛ فقال يا شيخ «**لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد**»(هود:٧٩) فضحك الرجل وقال: انزل فكُل))،[٢١] ويبدو من بنية الخبر أن بُنان لم يستدع النص القرآني لإقناع الرجل بما فعله خدمة للدين وأيديولوجيته، وإنما استدعى ما مخبوء في الآية القرآنية من حادثة على لسان قوم لوط(ع) ومخاطبتهم إياه (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق)، في أنهم ليس لهم حاجة أو رغبة في النساء لأنهن لسن أزواجاً لهم، وربما كانت رغبتهم في الرجال، واستدعاء هذا النص فيه من الذكاء ما يسوغ ما فعله بُنان مع الشيخ وعياله بأن أوصل رسالته في أن الهدف من النزول إلى منزل الشيخ ورؤية بناته يتشابه مع قصة قوم لوط(ع) في أنه لا رغبة له في بناته، بل إغلاق الباب دونه السبب في ذلك، وكانت نتيجة استدعاء النص القرآني على طرافتها مؤثّرة وفاعلة في إقناع الشيخ.

ومن هذا النوع من الأخبار ما أورده ابن الجوزي، أنه: ((أخذ زياد رجلاً من الخوارج، فافلت منه، فأخذ أخاً له. فقال له: إن جئت بأخيك وإلاّ ضربت عنقك. قال: أرايت أن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين، تخلي سبيلي؟ قال: نعم، قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى عليهما السلام «**أم لم يُنبّأ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفى، أن لا تزر وازرة وزر أُخرى**»(النجم:٣٦-٣٨)، قال زياد: خلوّا سبيله، هذا رجل لقن حجته))،[٢٢] لقد استثمر الرجل ما يسمّى المفاوضة الاستباقية،[٢٣] وهي استراتيجية حجاجية يقوم فيها المتكلم/الرجل على استباق الحجج المضادة التي يمكن أن يطرحها المخاطب/زياد، ممّا يدفع هذا الأخير الى التقيّد بالطرح المقدّم من قبل المتكلم لا البحث عن حجة مضادة، وبهذه التقنية حقّق الرجل باستدعاء النص القرآني نتيجة إقناع الطرف الآخر بنتيجة(خلّوا سبيله) ما يؤكد أن الخاصية الإقناعية هي المحور الذي يقوم عليه الحوار في هذه الأخبار.

ومن الأخبار الطريفة التي تدلّ على ذكاء وفطنة صاحبها ما نقله ابن الجوزي من خبر المبرد والجارية، إذ: ((ذكر أن رجلاً دعا المبرد بالبصرة مع جماعة، فغنّت جارية من وراء الستارة، وأنشأت تقول:

وقالوا لها: هذا حبيبك معرضٌ
فقالت ألا إعراضه أيسر الخطب
فما هي إلاّ نظرةٌ بتبسم
فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب كل من حضر إلاّ المبرد، فقال صاحب المجلس: كنت أحق الناس بالطرب؛ فقالت الجارية: دعه يا مولاي فإنه سمعني أقول: هذا حبيبك مُعرضٌ فظنني لحنتُ، ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ « وهذا بعلي شيخ» (التوبة:٧٢) قال: فطرب المبرد من قولها إلى أن شقّ ثوبه))،[٢٤] وما يميّز الخبر أن الحوار فيه لم يتمّ بشكل مباشر بين صاحب الحجة/الجارية والمعترض/المبرد، وإنّما عمدت الجارية الى طرف ثالث/صاحب المجلس، ومن شأن الحوار متعدد الأطراف أن يفضي إلى نتائج فكرية وتوجيهية هامة، ويؤدي إلى تطور متنامٍ لموضوع الحوار من جهة، وتزايد وتيرة الإقناع من جهة أخرى،[٢٥] ففي الخبر شارك المبرد في الحوار بشكل غير مباشر حين لم يطرب لغناء الجارية من دون الحاضرين، وقد تلقّفت الجارية ما يدور في خلد المبرد من ظنه أنها لحنت بلفظة(معرضٌ) في البيت الشعري التي محلها (معرضاً) على أنها حال، فأثبتت ذكاءها باستدعاء قراءة ابن مسعود من قوله تعالى «وهذا بعلي شيخاً» بأن قرأها (شيخٌ) على أنها خبر، وكان الاحتجاج بالنص القرآني احتجاجاً فكرياً هدفه إقناع المبرد، وقد تحقّقت النتيجة المرجوّة برضا المبرد في نهاية الخبر(طرب المبرد من قولها إلى أن شق ثوبه) وهي نهاية تدلّ على قبول عذرها الذي اعتمد على القراءة القرآنية.

ومن طريف هذا اللون من الأخبار ما نقله ابن الجوزي أن: ((أقبل أعرابي يريد رجلاً، وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطّى التين بكساء كان عليه والإعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً، قال: نعم، قال: فاقرأ، فقرأ «والزيتون وطور سنين»(التين:١-٢) فقال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك))،[٢٦] فحذف لفظة(تين) من قراءة النص القرآني، كان كافياً لافحام الرجل الذي وضع التين تحت ردائه وحجبه عن الأعرابي.

٣- المغالطة الفكاهية – الخروج عن سلطة المقدس

إن حضور النص القرآني في الخطاب يمثّل سلطة في حدّ ذاته، اذا ما وظّف توظيفياً حجاجياً يبتغي منه الاستدلال بالمقدس في الإقناع، أمّا أن يتجاوز الخطاب قياسه الطبيعي ويستثمر النص القرآني في السرد الخبري فيما يثير الفكاهة والسخرية أو التندّر، فربما يدخل الخبر في باب المغالطة بالسلطة، أو هي تقترب ممّا اصطلح عليه د. أحمد عبد الغفار(المغالطات المرحة)،[٢٧] وهو ينقّب عن أدب الفكاهة عند الجاحظ.

وتقوم الأخبار التي تحمل طابع الفكاهة على مبدأ الحوار بين شخصياتها، والحوار القائم في هذا النوع من السرد إنمّا أساسه المفارقة أو المفاجأة في الحدث، وعبر هذه المفارقة يعبّر المنشئ عمّا يريد الإتيان به من قول حول فكرة ما.[٢٨]

إن القرآن الكريم بما امتاز به من صفات تفرّد بها من حيث العموم والشمول في معالجته للموضوعات والقضايا المتعلّقة بحياة الناس، بوصفه معيناً لا ينضب استلهم منه الأدباء أفكارهم التي ترجموها إلى قطع نثرية أو شعرية تنطلق بها عن الموضوعات التي عالجوها ومنها الفكاهة،[٢٩] يحتاج إلى وقفة تأمّل ونظر، لأن الجميع يتفق على أن مرجعية النص القرآني حاكمة في النص، وتجاوز الحدّ في استدعاء النص القرآني وتوظيفه للفكاهة في الأخبار إنّما يدخل في باب المغالطة أو التغليط.

إذ يرى د.حسان الباهي أن ((استخدام السلطة مشروع عندما تبقى في إطار الحدود المرسومة لها بحسب القوانين والأعراف، لكن قد نعمد أحياناً إلى استخدامها بطرائق غير مشروعة باستغلالها فيما لا يحقّ لنا أن نستخدمها فيه))،[٣٠] وممّا جاء في أخبار الأذكياء ما يعضد ذلك عن خبر عبادة المخنث،: ((وقال: رأى عبادة المخنث ثفر دابةٍ، فمط ذنبها، وقال: هذه تمشي على استحياء))،[٣١] فنلحظ أن الخبر يتجاوز سلطة النص القرآني إلى ما هو فكاهي حين عمد إلى تشبيه ثفر الدابة بالقياس على الاستدعاء غير المباشر لقوله تعالى: ((**فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين**)) (القصص:٢٥)، فمساق الخبر يقوم على تقنية القطع لعلاقته مع المرجعية الدينية التي استدعاها، فليس ثمة مناسبة بين حدث خبر عباده، وبين حادثة المرأة التي جاءت إلى نبي الله موسى(عليه السلام) لتخبره بدعوة أبيها ليجزيه خير ما فعل، إذ حمل الخبر مسحة فكاهية لا تمتّ بصلة إلى الآية القرآنية ولا مناسبة قوله.

إن سلطة المقدس لا تستقيم إلاّ في سياق معيّن، يتألّف من مواقف ووجهات نظر ومعتقدات ومسلمات معيّنة، ولا تجري في فراغ، وامكانية نجاعتها موكله بالتواصل السياسي أو الاجتماعي،[٣٢] أمّا إذا دخلت في باب الفكاهة العقلية أو التذاكي التي يدخل بضمنها كثير من أخبار أذكياء ابن الجوزي، فإنها تتحوّل من وظيفتها الاستدلالية الإقناعية لتؤدي وظيفة أخرى تدخل في إطار من التفكّه والتندّر.

ويرى باختين، أن الانفصال بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية، وبين الجدّ والهزل، والتديّن والتهكّم، قد تكرّس بفعل الانقسام أو التمايز بين الطبقات،[٣٣] وربما يتواشج هذا الرأي مع التعدد الطبقي للعصر الذي نقل أخباره ابن الجوزي، فبهلول كان يعدّ في طبقة المجانين وإن تظاهر بالجنون، ينقل عنه ابن الجوزي خبراً يقوّي مقولة باختين في ان التعدّد الطبقي سبب في الفصل بين الثقافة الشعبية والرسمية، والفصل بين ثقافة التدين والفكاهة أو التهكّم والسخرية،قال: ((فرّ يوماً بهلول من الصبيان، فالتجأ إلى دارٍ، فوجد بابها مفتوحاً، وصاحب الدار قائم، له ضفيرتان، فصاح: ما أدخلك داري؟ فقال: « **يا ذا القرنين! إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض**»(الكهف:٩٤))،[٣٤] فاستدعاء الآية القرآنية يمثّل ذلك الحسّ الفكاهي في أخبار البهلول تتجلّى في تلك المواءمة بين بنية (ضفيرتان) التي نعت بها صاحب الدار، وبين بنية(ذا القرنين) في الآية الكريمة، وكأنها لون من الفكاهة اللفظية والفكاهة الإحالية أو المرجعية المرتبطة

بالواقعة أو الحدث،[٣٥] وهذه الإحالة إلى مرجعية النص القرآني، وإن كانت تحمل في طياتها مسحة فكاهية، إلاّ أنها تظلّ محاولة أو آلية دفاعية أراد منها البهلول مواجهة دخوله دار الرجل دون وجه حق.

وقد يكون للفكاهة حتى مع النص القرآني وبتجاوزها حدود استدعاء المقدّس دور في إضفاء السخرية من الآخرين، فقد نقل ابن الجوزي خبر الأعمش وهو من المحدثين والقراء : ((عن جرير، قال: جئنا الأعمش يوماً فوجدناه قاعداً في ناحية، فجلسنا في ناحيةٍ أخرى، وفي الموضع خليج من المطر، فجاء رجل عليه سواد، فلما بصر بالأعمش وعليه فروة حقيرة قال: قم عبّرني هذا الخليج، وجذب بيده، فأقامه وركبه، وقال:» سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين»(الزخرف: ١٣) فمضى به الأعمش حتى توسّط به الخليج، ثم رمى به وقال:» **وقل ربي**

أنزلني منزلاً مباركاً، وانت خير المنزلين»(المؤمنون: ٢٩) ثم خرج وترك المُسوّد يتخبّط في الماء))،[٣٦] يقوم السلوك الحواري بين الأعمش والرجل الأسود على الإحالة إلى مرجعية النص القرآني بوصفه الاساس في تشكّل بنية الخبر، ثم ان استدعاء الآيات الكريمات من قبل طرفي الحوار لتؤدّي وظيفة السخرية المنغمسة بالحّس الفكاهي لكل منهما.

الخاتمة

لقد توصلت الدراسة إلى جملة نتائج يمكن إجمالها بما يلي:

١- لامناص للسرد في كتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي(٥٩٧هـ) من استدعاء النص القرآني في أخباره، لما ينماز به من حاكميته وسلطته الدينية والتداولية التي توجّه الخطاب وتدعم غاياته.

٢- ارتبطت بعض الأخبار ارتباطاً أيديولوجياً دينياً بالنص القرآني فهو الذي يشكّل بنية الخبر على المستوى اللغوي وعلى مستوى المحمولات الدلالية.

٣- استثمرت بعض الأخبار في الكتاب النص القرآني في خصوم الانداد للدفاع عن المقدس كما في أخبار بعض اليهود ومحاورتهم للمسلمين في شؤون تخصّ دينهم وعقائدهم، فكان النصّ القرآني حاكماً لكفايته الأيديولوجية في التبادل الحجاجي.

٤- تشتغل بعض الأخبار على توظيف النص الديني/ القرآن لمنافع أو توجهات غير دينية، قد تكون اجتماعية أو منافع شخصية، لاتمتّ لاستدعاء النص القرآني ولا مناسبة قوله بصلة، فيما يندرج تحت (الحوار التفاوضي) القائم على العرض والاعتراض بين المتحاورين.

٥- تتجاوز بعض الأخبار سلطة حضور المقدس في الأخبار في توظيفه بما يثير الفكاهة والسخرية من الآخرين والاستهزاء بالخصوم.

٦- إن الانفصال بين الثقافة الرسمية والشعبية، والتديّن والتهكّم أو السخرية، والتمايز الطبقي له بالغ الأثر في توظيف النص القرآني ضمن حدود ما يسمّى(المغالطات المرحة) القائمة على المفارقة والانزياح في توظيف النص القرآني.

الهوامش

١- ينظر، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل،د.علي الشبعان:٣١١ .
٢- ينظر،إستراتيجية الخطاب، عبد الهادي الشهري:٢٤٨ .
٣- في بلاغة الحجاج،د.محمد مشبال:١٤٠ .
٤- أخبار الأذكياء،ابن الجوزي:٢٩ .
٥- ينظر،الخبر في الأدب العربي،د،محمد القاضي:٣٥٨ .
٦- أخبار الأذكياء:١٧٦ .
٧- ينظر،السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، إبراهيم صحراوي:٧٢ .
٨- الخبر في الأدب العربي،د.محمد القاضي:٦٥ .
٩- ينظر،في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،د.طه عبد الرحمن:٤٦-٤٧ .
١٠- أخبار الأذكياء:١٨٦ .
١١- نفسه:١٨٥ .
١٢- الحوار وخصائص التفاعل الحواري،د.محمد نظيف:٣٧ .
١٣- نفسه:٦٠ .
١٤- أخبار الأذكياء:١٨٨ .
١٥- أخبار الأذكياء:٢٨٩-٢٩٠ .
١٦- ينظر، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢٧٠ والمغالطة والحجاج،د.رشيد الراضي:١١٤ .
١٧- أخبار الأذكياء:٢٨١ .
١٨- ينظر، الحوار ومنهجية التفكير النقدي:٥٦ .
١٩- ينظر، اللسان والميزان:٢٧٩ .
٢٠- أخبار الأذكياء:١٨٠-١٨١ .
٢١- نفسه:٢٣٩ .
٢٢- اخبار الاذكياء:١٨٩ .
٢٣- ينظر، بلاغة الاقناع في المناظرة،د.عبد اللطيف عادل:١١٨ .
٢٤- أخبار الأذكياء: ٢٩٠ .
٢٥- ينظر، الحوار وخصائص التفاعل الحواري:٦٨ .
٢٦- أخبار الأذكياء:١٢٨ .
٢٧- ينظر، أدب الفكاهة عند الجاحظ: ٨٠ .
٢٨- ينظر، الفكاهة في النثر العباسي، د. علي عزيز صالح: ٢٥١ .
٢٩- ينظر، نفسه: ٢٣٥ .
٣٠- الحوار ومنهجية التفكير النقدي: ١٩٧ .
٣١- أخبار الأذكياء: ٢٠٣ .
٣٢- ينظر، في بلاغة الحجاج،د.محمد مشبال: ١٤١ .
٣٣- ينظر، الفكاهة والضحك، رؤية جديدة،د.شاكر عبد الحميد: ٢٩٩ .
٣٤- أخبار الأذكياء:٦٧ ، وينظر خبر آخر للبهلول مشابه في نفس الصفحة.
٣٥- ينظر،الفكاهة والضحك، رؤية جديدة: ١١٢ .
٣٦- أخبار الأذكياء: ١٠٦ .وينظر أمثلة ذلك في: ٢٠٤، ١٣٠،٢٤٤،٢٤٢،٢٠٦،١٩٥،١٩٧،٩٠ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- أخبار الأذكياء،ابن الجوزي(٥٩٧هـ)، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ .

٢- أدب الفكاهة عند الجاحظ، د. أحمد عبد الغفار عبيد، دار الكتب العلمية، مصر،ط١، ١٩٨٢ .

٣- استراتيجية الخطاب، عبد الهادي الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ .

٤- بلاغة الإقناع في المناظرة، د.عادل عبد اللطيف، منشورات ضفاف، بيروت،ط١، ٢٠١٣ .

٥- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، د.علي الشبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠ .

٦- الحوار وخصائص التفاعل الحواري، د.محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب،ط١، ٢٠١٠ .

٧- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، د.حسان الباهي،أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٣

٨- الخبر في الادب العربي دراسة في السردية العربية، د.محمد القاضي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨ .

٩- السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، د.مسعود صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨ .

١٠- الفكاهة في النثر العباسي، د.علي عزيز صالح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠ .

١١- الفكاهة والضحك رؤية جديدة، د.شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ٢٠٠٣ .

١٢- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠ .

١٣- في بلاغة الحجاج، د.محمد مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٦ .

١٤- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨ .

١٥- المغالطة والحجاج، د.رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠